

ما هي الخطوة التالية لهيئة تحرير الشام؟

أحمد أبازيد



ملخص: تواجه هيئة تحرير الشام حملة متصاعدةً وتحدياتٍ أمام تماسك سلطتها في إدلب، فقد فرضت الحملة الروسية تهديداتٍ متزايدةً على هيئة تحرير الشام، سواء باستمرار الحملة العسكرية نحو عمق إدلب، أو باحتمالية استجابة تركيا للطرح الروسي وتبني الضغط على الهيئة. وداخلياً تواجه الهيئة مرةً أخرى حملة مظاهراتٍ شعبيةٍ أطلقتها نشطاء ثوريون ضد الهيئة وذراعها المدنية حكومة الإنقاذ، كما تواجه حملة موازية من التيار الجهادي داخل الهيئة وخارجها تهاجم زعيمها الجولاني وسياساته البراغماتية وتتهمها بفساد مالي. تتعدد خيارات الهيئة، ما بين حل التنظيم كما يطالب خصومها، أو الدخول في تحولاتٍ جديدة كما فعلت سابقاً، أو مقاومة الضغوط الراهنة والتمسك بصيغة التنظيم نفسها وهو السيناريو المرجح؛ ولكن الموقف الإقليمي والدولي يبقى ذا تأثيرٍ حاسمٍ في مستقبل الهيئة الذي ما زال غامضاً حتى الآن.

مقدمة:

ولكن هذه التحولات البراغماتية والقبول بالتدخل التركي ضمن مخرجات مسار الأستانة كان يناقض الفتاوى والشعارات الجهادية التي استعملتها الهيئة سابقاً ضد الفصائل المحلية المنافسة وضد الجيش التركي نفسه الذي يوصف أنه جيش علماني في الأدبيات الجهادية، فقد انسحبت جبهة النصر في آب ٢٠١٥م من ريف حلب الشمالي قبيل التدخل التركي هناك ضد تنظيم داعش معلنة عدم جواز الدخول في المعركة إلى جانب تركيا وأمريكا^٢، وكررت جبهة فتح الشام هذه الفتوى مع بدء عملية درع الفرات بتحريم القتال «تحت أي طرف إقليمي»^٣، وعلى إثر جولة الأستانة الأولى في بداية ٢٠١٧م شنت جبهة فتح الشام معركة واسعة ضد الفصائل بتهمة التمهيد لقتالها وتطبيق مخرجات الأستانة^٤، ثم وصفت تطبيق اتفاق خفض التضعيد الذي تضمن إنشاء نقاط مراقبة تركية بـ «الخيانة»^٥، وامتد تناقض الفتاوى والتصريحات حتى قبل التدخل التركي في إدلب بأيام^٦.

تعرضت هيئة تحرير الشام لاحقاً إلى ضربة كادت تطيح بهذه السيطرة في شباط - آذار ٢٠١٨م، حين شنت جبهة تحرير سوريا (أحرار الشام وحركة الزنكي) هجوماً على هيئة تحرير الشام اضطر الأخيرة إلى الانسحاب - خلال أسبوعين من الاقتتال - من معظم مواقعها في ريف حلب الغربي وريف إدلب الجنوبي والشمالي^٧، إلى أن استعادت هذه المناطق بهجوم معاكس بالتحالف مع الحزب التركستاني الإسلامي، وتم تثبيت اتفاق هدنة بعد شهرين من الاشتباكات^٨، لتثبت الهيئة من جديد قدرتها على فرض سيطرتها مقابل الفصائل الثورية.

مع هزيمة حركة أحرار الشام وطردها من معبر باب الهوى الحدودي في تموز ٢٠١٧، أصبحت هيئة تحرير الشام الفصيل المسيطر على الشمال الغربي الذي يشمل إدلب وريفها وريف حماة الشمالي، وباشرت بفرض ذراعها المدني المسمى حكومة الإنقاذ على المنطقة كبديل عن الحكومة المؤقتة والمجالس المحلية المحسوبة على التيار الثوري، ليبقى ريف حلب الغربي منطقة خارج سيطرة الهيئة نسبياً ويقع تحت سلطة حركة الزنكي والحكومة المؤقتة، إضافة إلى مواقع صقور الشام وأحرار الشام المتبقية في سهل الغاب وجبل الزاوية، وبعض الجيوب التي نشط فيها الحراك المدني في رفض الهيئة والتي كان أبرزها مدينة معرة النعمان، وهو ما عنى سيطرة هشة للهيئة في ذلك الوقت.

بالهجوم على أحرار الشام والسيطرة على معبر باب الهوى، استبقت هيئة تحرير الشام التدخل التركي في إدلب بموجب مسار الأستانة، لتثبت نفسها أمام أنقرة كطرف مسيطر على الأرض عليها التنسيق معه، وبذلك دخل أول رتل عسكري تركي إلى إدلب في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٧م^٩، وذلك بمرافقة من هيئة تحرير الشام، وقد راهنت الهيئة على هذه الخطوة للحصول على قبول إقليمي ودولي يمهّد لإزالتها عن لوائح الإرهاب وقبول سيطرتها على إدلب ضمن سياسة إثبات الاعتدال التي انتهجها الجولاني منذ تشكيل جبهة فتح الشام ثم تشكيل هيئة تحرير الشام.

بالهجوم على أحرار الشام والسيطرة على معبر باب الهوى، استبقت هيئة تحرير الشام التدخّل التركي في إدلب بموجب مسار الأستانة، لتثبت نفسها أمام أنقرة كطرفٍ مسيطرٍ على الأرض عليها التنسيق معه

تجمعت الفصائل الثورية المتبقية في إدلب وحماة لاحقاً برعاية تركية ضمن «الجبهة الوطنية للتحرير» التي تم إعلان تشكيلها في البداية في ٢٩ أيار/مايو ٢٠١٨، لتضمّ الفصائل التي كانت منضوية ضمن غرفة الموم بعد توقف برنامج الدعم الأمريكي، ولكنها شهدت في ١ آب/أغسطس ٢٠١٨ إعادة تشكيل لتشمل جميع فصائل المعارضة والمحسوبة على الجيش الحر في المنطقة (ما عدا جيش العزة)، ومن ضمنها أحرار الشام وصقور الشام وفيلق الشام^١.

في ١٧ أيلول/سبتمبر ٢٠١٨م، تم الإعلان عن اتفاق سوتشي حول إدلب بين الرئيسين التركي والروسي، ليوقف موجة من القصف والتهجير والتصعيد المنذر بالحرب، على إثر تصعيد دبلوماسي تركي مقابل هدد بنسف التفاهات الروسية التركية، وقد نص الاتفاق على إبعاد المجموعات المسلحة عن المنطقة العازلة والاستمرار بمكافحة المجموعات الإرهابية^٢، ولم ينص الاتفاق المعلن على حلّ هيئة تحرير الشام، كما تم إشاعته، وقد أصدرت الهيئة بيان موافقة على الاتفاق وترحيب بالجهود التركية^٣، وهو ما يظهر التحول الكبير في الخطاب ومحاولة التقارب مع تركيا.

استغلت هيئة تحرير الشام اتفاق سوتشي في تثبيت سيطرتها على إدلب، واستكمال بناء شبكتها المؤسسية والأمنية والاقتصادية عبر حكومة الإنقاذ، كما استفادت من تهجير جيوب الثوار المحاصرة في وسط وجنوب سوريا نحو إدلب، لتجمع المقاتلين المهجرين -المنتمين إليها بالأساس- ضمن كتل مناطقية ضمن هيئة تحرير الشام^٤.

فما بعد اتفاق سوتشي، استأنفت هيئة تحرير الشام حربها ضد الجبهة الوطنية للتحرير في اشتباكات متقطعة، لتمنع تشكيل سلطة منافسة في المنطقة، تركزت هجمات الهيئة ضد حركة الزنكي ولكنها توسعت مع مشاركة المناطق والفصائل المنضوية ضمن الجبهة الوطنية للتحرير في المعركة، خاصة في سهل الغاب وجبل الزاوية وريف إدلب الشمالي.

كانت الموجة الحاسمة من الاقتتال مع بداية عام ٢٠١٩، حين قامت هيئة تحرير الشام في ذلك الوقت بشنّ هجوم شامل على حركة الزنكي في ريف حلب الغربي إلى أن تمكنت من تفكيك فصيل الزنكي وطرده من معقله التقليدي في ريف حلب الغربي نحو عفرين^٥، وأخضعت عبر الحصار والتهديد جيوب الجبهة الوطنية في سهل الغاب وجبل الزاوية والتي فضلت بالعموم عدم القتال والحفاظ على مواقعها بعد انهيار حركة الزنكي^٦، رغم أن الجبهة الوطنية للتحرير تمكنت من قضم مواقع مهمة للهيئة في المرحلة الأولى من المعركة في المناطق المحاذية لسهل الغاب وجبل الزاوية وريف إدلب الجنوبي.

جرى توقيع اتفاق وقف إطلاق نار في ١٠ كانون الثاني/يناير ٢٠١٩م بين الجبهة الوطنية للتحرير وهيئة تحرير الشام، والذي كان في حقيقته إعلان انتصار للهيئة، نص الاتفاق على فرض حكومة الإنقاذ وخروج من يرغب من المقاتلين وبقاء الفصائل في مواقعها، في حالة تشبه اتفاقيات المصالحة المحلية مع النظام، والتي تضمنت فرض حكومة النظام ومصادرة السلاح الثقيل وخروج من يرغب من المقاتلين الراضين للتسوية، وأعلنت هيئة تحرير الشام في بيان انتصار أن جميع مناطق إدلب وريف حماة أصبحت تتبع لحكومة الإنقاذ^٧.

تجمعت الفصائل الثورية المتبقية في إدلب وحماة لاحقاً برعاية تركية ضمن «الجبهة الوطنية للتحرير» التي تمّ إعلان تشكيلها في البداية في ٢٩ أيار/مايو ٢٠١٨، لتضمّ الفصائل التي كانت منضوية ضمن غرفة الموم بعد توقف برنامج الدعم الأمريكي

كانت الموجة الحاسمة من الاقتتال مع بداية عام ٢٠١٩، حين قامت هيئة تحرير الشام في ذلك الوقت بشن هجوم شامل على حركة الزنكي في ريف حلب الغربي إلى أن تمكنت من تفكيك فصيل الزنكي وطرده من معقله التقليدي في ريف حلب الغربي نحو عفرين

تأثيرات الحملة الروسية في حماة

استمر هذا الوضع حتى بدء الحملة العسكرية الروسية الأخيرة، والتي بدأت عبر القصف الجوي مطلع آذار ٢٠١٩م، لتنتقل إلى حملة برية في ٦ أيار/ مايو، وتمكنت قوات النظام المدعومة بالطيران الروسي من السيطرة على عدة مواقع في البداية أبرزها كفرنبودة وقلعة المضيق، قبل أن تتمكن الفصائل من إعادة ترتيب صفوفها والقيام بحملات مضادة في تل ملح والجبين^٨، ورغم إعلان وقف إطلاق نار في جولة الأستانة^{١٣}، إلا أن الجولة الثانية من المعركة التي استؤنفت بعد أيام تمكنت خلالها القوات الروسية وقوات النظام من السيطرة على طوق ريف حماة الشمالي بالكامل مع وصولها إلى مدينة خان شيخون^٢.

كان لافتاً قيام فصائل الجبهة الوطنية للتحرير، التي سبق للهيئة مهاجمتها وتفكيك قسم منها في سهل الغاب وجبل الزاوية وإدلب أن تقوم بتجميع نفسها سريعاً وتحمل القسم الأكبر من جبهات المعركة، إضافة إلى دخول مؤازرات متتابعة من فصائل الجيش الوطني المدعومة تريكياً من مناطق عفرين ودرع الفرات، رغم ممانعة الهيئة سابقاً، والتي كانت تقوم سابقاً باعتقال أشخاص بتهمة انضمامهم إلى الجيش الوطني^٣.

هذه المشاركة من خصوم الهيئة في الجبهة الوطنية والجيش الوطني، إضافة إلى سقوط محاور رئيسية كانت ترابط فيها الهيئة مثل الهبيط وحرش عابدين وخان شيخون^٣، ساهمت في إظهار أداء هيئة تحرير الشام العسكري أقل من المتوقع، حتى بالنسبة إلى أنصارها، رغم أن الهيئة صرحت بسقوط أكثر من ٥٠٠ قتيل في معارك حماة^٣، إلا أن المعارك الأخيرة كسرت ادعاء الهيئة السابق أنها القوة العسكرية الأكبر التي تتولى حماية المنطقة، وهي الحجة التي

استعملتها سابقاً في قتال الفصائل الثورية وتفكيكها، وانكسار هذه الصورة لم يضعف قدرة الهيئة على فرض نفسها محلياً فقط، وإنما أضعف صورتها كقوة وحيدة ومؤثرة أمام الخارج، وتحديداً أمام أنقرة.

الحراك الشعبي ضد الهيئة

مع سقوط ريف حماة الشمالي تصاعدت الحملة ضد هيئة تحرير الشام، فقد أطلق النشطاء الثوريون مظاهرات حاشدة في إدلب وريفها رفعت هتافات ضد الهيئة وزعيمها الجولاني وذراعها المدني حكومة الإنقاذ، وكان من الأسباب المباشرة لهذه المظاهرات قرارات بتقنين ساعات الكهرباء من قبل حكومة الإنقاذ مع رفع الضرائب، مع فشل حكومة الإنقاذ على المستوى الخدمي وتفاقم أزمة النازحين والمهجرين الإنسانية، خاصة بعد خروج عدد من المنظمات المدنية عن الخدمة بسبب التضيق والإتاوات المفروضة عليها من هيئة تحرير الشام^٤، أو بسبب قطع الدعم عنها من قبل الممولين^٥، يضاف إلى ذلك الأسباب السياسية للضغط على هيئة تحرير الشام لحل نفسها.

أما بالنسبة إلى الجبهة الوطنية للتحرير، فقد تضررت فصائلها بشكل كبير من انقطاع مواردها الذاتية بعد سيطرة هيئة تحرير الشام على المعابر والحركة التجارية، كما خسرت القسم الأكبر من مستودعاتها لصالح الهيئة سابقاً، وأصبحت علاقاتها الدولية محصورة بأنقرة بعد إغلاق غرفة الموم، وكانت مضطرة لتجميع قواتها سريعاً مع بداية الحملة الروسية على إدلب، ولجأت إلى الاعتماد على حملات تبرعات شعبية إلى جانب الدعم التركي^٦، وهو ما راكمت من الاحتقان ضد هيئة تحرير الشام بالإضافة إلى أداء الهيئة العسكري الذي كان أقل من المتوقع.

المعارك الأخيرة كسرت ادعاء الهيئة السابق أنها القوة العسكرية الأكبر التي تتولّى حماية المنطقة، وهي الحجّة التي استعملتها سابقاً في قتال الفصائل الثورية وتفكيكها، وانكسار هذه الصورة لم يضعف قدرة الهيئة على فرض نفسها محلياً فقط، وإنما أضعف صورتها كقوة وحيدة ومؤثرة أمام الخارج، وتحديدًا أمام أنقرة

ولكن دخول فصائل المعارضة في صدام ضد الهيئة يبقى مستبعداً، بالنظر إلى التخوف من استفادة قوات النظام وروسيا من هذا الصدام، وعدم وجود ضمانات الهدنة مستدامة أو طويلة الأمد في إدلب، ولا ضمانات بتخلي موسكو عن الهجوم على إدلب في حال عدم وجود هيئة تحرير الشام.

العلاقة مع الجهاديين

من جهة مقابلة تصاعدت أصوات الجهاديين داخل الهيئة وخارجها في انتقاد الجولاني وسياساته البراغماتية والتشكيك بفساد مالي، وكان أبرز هؤلاء عبد المعين كحال والمعروف بلقبه «أبو العبد أشداء»^{٣٧}، وهو قائد «جيش عمر» ضمن هيئة تحرير الشام والذي يجمع مقاتلي حلب المنتمين للهيئة، ويشكل أشداء مع الشرعيين المصريين (أبو شعيب وأبو اليقظان) مجموعة واحدة منذ كانوا ضمن حركة أحرار الشام في حلب قبل انشقاقهم وانضمامهم إلى هيئة تحرير الشام، ليصبحوا رأس حربة في الدعوة لقتال الفصائل المنافسة لهيئة تحرير الشام، خاصة ضد فصيلهم السابق أحرار الشام.

مع انقلاب أبو العبد على قيادته ظهرت مواقف عدة تؤكد على اتهاماته للجولاني، فالقاضي السابق في الهيئة وأحد أشرس المحرضين على قتل خصومها «أبو اليقظان المصري»، والمشهور بفتوى «الطلقة في الرأس لعناصر أحرار الشام»^{٣٨}، أصدر بياناً بعد استقالته حول الإهمال العسكري والفساد الإداري لدى الجولاني^{٣٩}، والقاضي في المحكمة العسكرية للهيئة «عصام الخطيب» اتهم الجولاني بالمسؤولية التي تبدو متعمدة عن سقوط المناطق تماشياً مع القرارات الدولية^{٤٠}، إلى جانب اتهامات زوجته «بتول جنديّة» للهيئة بانتهاكات وتحرش جنسي بحق النساء^{٤١}، الاتهامات نفسها التي زاد عليها المصري «طلحة المسير» الذي يعتبر المرجع الشرعي الأبرز لهذا التيار دعوته لإقالة الجولاني واتهامات ضمنية بمسؤوليته عن اغتيال مخالفه^{٤٢}.

سواء كان الانقلاب الأخير لهذه المجموعة نابعاً من قناعات أيديولوجية أو نتيجة عدم امتلاكهم لسلطة حقيقية أو تأثير على القرار ضمن قيادة الهيئة، ولكنه يمثل تياراً واسعاً ضمن الوسط الجهادي لم يعد يعترف بتمثيل هيئة تحرير الشام وزعيمها للتيار الجهادي، يشمل هذا جميع رموز السلفية الجهادية التقليديين مثل أبو محمد المقدسي وأبو قتادة الفلسطيني وهاني السباعي وتنظيم القاعدة، كما يشمل فئة كبيرة من المؤسسين والشرعيين في جبهة النصرة سابقاً، بعد تناقض سلوك الهيئة البراغماتي مع الفتاوى التي كانت تتبناها، سواء من حيث العلاقة مع تركيا أو الموافقة على الهدن أو الخطاب السياسي المعتدل^{٤٣}.

في كلمة مصورة نشرها قبيل اعتقاله^{٤٤}، ذكر «أبو العبد أشداء» أن موارد الهيئة الشهرية تبلغ ١٣ مليون دولار، كما استلمت أموالاً من دولة لم يسمّها بقدر ١٠٠ مليون دولار عند تشكيلها، إضافة إلى الشبكة التجارية والاقتصادية الواسعة التي تديرها، بينما لم تنفق الهيئة عسكرياً وخدمياً على المنطقة، وأبعدت الأصوات المعارضة للجولاني، وقال إن الهيئة كانت تعلم بمحاور معركة حماة مسبقاً ولم تقم بتحسين المنطقة ما أدى إلى سقوطها.

ولكن دخول فصائل المعارضة في صدام ضد الهيئة يبقى مستبعداً، بالنظر إلى التخوف من استفادة قوات النظام وروسيا من هذا الصدام، وعدم وجود ضمانات لهدنة مستدامة أو طويلة الأمد في إدلب، ولا ضمانات بتخلي موسكو عن الهجوم على إدلب في حال عدم وجود هيئة تحرير الشام

وسواء كان الانقلاب الأخير لهذه المجموعة نابغاً من قناعات أيديولوجية أو نتيجة عدم امتلاكهم لسلطة حقيقية أو تأثير في القرار ضمن قيادة الهيئة، ولكنه يمثل تياراً واسعاً ضمن الوسط الجهادي لم يعد يعترف بتمثيل هيئة تحرير الشام وزعيمها للتيار الجهادي

أدرك الجولاني خطورة منافسته على تمثيل التيار الجهادي لدى قواعده، فضلاً عن إسقاط مصداقيته الجهادية، إضافة إلى التهديد الأمني العميق الذي يمكن أن يمثله رفاقه السابقون، لذلك شرع العديد من حملات التضييق والاعتقالات ضد التنظيمات الجهادية الموازية مثل تنظيم حراس الدين وتنظيم جند الأقصى (اجتمعت بقاياها ضمن تنظيم أنصار التوحيد لاحقاً)، وقد تحالفت هذه التنظيمات الجهادية الموازية والرافضة لسياسة هيئة تحرير الشام واتفاق سوتشي ضمن غرفة «وحزب المؤمنين»^{٤١}. تخشى هذه التنظيمات من التفوق العسكري لدى هيئة تحرير الشام، كما يخشى الجولاني من تأثير حملة شاملة ضدها على استمرار ولاء عناصره وتماسكه، لذلك توصل الطرفان إلى تفاهات قبلت فيها الهيئة بوجود حراس الدين وتعهدت بإمداده بالسلاح ولكن مع خضوعه لشروط الهيئة^{٤٢}، ورغم انقسامات تنظيم حراس الدين وعدم قدرته على استقطاب أعداد وازنة أو استغلال تمثيله لتنظيم القاعدة في استقطاب متطوعين أجنبي جدد، لكنه يبقى التهديد والبديل الأبرز لدى التيار الجهادي والرافض لسياسة الجولاني.

يضاف إلى ما سبق طيف من مجموعات الجهاديين الأصغر في إدلب، وتنوع مواقفها من هيئة تحرير الشام، كما يفضل معظمها النأي بالنفس عن صراعات الهيئة ضد الفصائل والحواضن المحلية، بالنسبة إلى المقاتلين العرب مثلاً، انقسم الأردنيون بين هيئة تحرير الشام وتنظيم حراس الدين وهناك أسماء أردنية في قيادة الفصيلين^{٤٣}، بينما اختار أغلبية المقاتلين السعوديين والخليجيين الحياد منذ اقتتال هيئة تحرير الشام وحركة أحرار الشام^{٤٤}، بتأثير رئيس من موقف عبد الله المحيسني الذي أصبح على خلاف واضح مع هيئة تحرير الشام بعد أن كان في مكتبها الشرعي^{٤٥}.

في كلمة مصوّرة نشرها قبيل اعتقاله، ذكر «أبو العبد أهداء» أن موارد الهيئة الشهرية تبلغ ١٣ مليون دولار، كما استلمت أموالاً من دولة لم يسمّها بقدر ١٠٠ مليون دولار عند تشكيلها، إضافة إلى الشبكة التجارية والاقتصادية الواسعة التي تديرها، بينما لم تنفق الهيئة عسكرياً وخدمياً على المنطقة

اعتقلت هيئة تحرير الشام «أبو العبد» كما اعتقلت الناشط الإعلامي «أحمد رحال» المناصر للهيئة، والذي اتهم بتصوير الفيديو، بينما تواردت أنباء عن هروب عدد من الشخصيات الجهادية – والتي كانت ضمن الهيئة سابقاً – نحو تركيا خوفاً من الاعتقال والتصفية من قبل هيئة تحرير الشام^{٣٥}.

وقد كان التشكيك بالمصداقية الجهادية للجولاني نتيجة تحولاته قد ظهر في البداية مع فك ارتباطه بالقاعدة وتحوله إلى جبهة فتح الشام (٢٠١٦/٧/٢٨)، وهو التحول الذي بدأ حالة القطيعة والعداوة بين الجولاني وتنظيم القاعدة، فقد استغل الجولاني غياب أيمن الظواهري لإتمام فك الارتباط ولكن بعودة التواصل مع الظواهري أعلن زعيم تنظيم القاعدة في كلمة تحت عنوان «سنقاتلكم حتى لا تكون فتنة» (٢٠١٧/١٠/٤) أن بيعة «القاعدة» ملزمة وتركها عمل محرّم^{٣٦}، وفي كلماته اللاحقة بعد بأسه من عودة تنظيمه المنشق وهجوم الهيئة على تنظيم حراس الدين تطور خطاب الظواهري إلى وصف الهيئة بأوصاف مثل: نكث العهود والغدر بالمجاهدين والتنازل عن الجهاد والمضي للعملية الديمقراطية والخضوع للعلمانية التركية^{٣٧}. اكتملت هذه القطيعة لدى تحول الجولاني إلى هيئة تحرير الشام (٢٠١٧/١/٢٨)، والتي دخلت ضمن سيرورة تحولات في الخطاب والسلوك ومحاولة إثبات الاعتدال وتبني مشروع إقامة حكومة مصغرة في إدلب، وهو ما دفع بانشقاق التيار المنتمي للقاعدة وتشكيل تنظيم حراس الدين في (٢٠١٨/٢/٢٧)^{٣٨}، والذي سارعت الهيئة لاعتقال قياداته ومن بينهم الأردني سامي العريدي الذي كان الشرعي العام لجبهة النصرة سابقاً، قبل أن تفرج عنه خوفاً من انشقاقات داخل الفصيل^{٣٩}.

ولكن استمرار تحولات الهيئة البراغمية وتدهور مصداقيتها وعلاقتها بالوسط الجهادي، إضافة إلى انكسار صورتها كقوة عسكرية متفوقة بعد المعركة الأخيرة، واستمرارها في الوقت نفسه في حرب اغتيالات صامتة تستهدف التيار المنتمي للقاعدة من المقاتلين الأجانب خاصة ؛ كل هذا يجعل قدرة هيئة تحرير الشام على التحكّم بورقة المقاتلين الأجانب أصبحت أكثر محدودية، إن لم يكن على النقيض، قد أصبحت ورقة المقاتلين الأجانب ضد هيئة تحرير الشام

توجد حالة الارتباط الهش والتنوع نفسه لدى المقاتلين الآسيويين، كتيبة البخاري من المقاتلين الأوزبك مثلاً تعتبر مقربة من حركة أحرار الشام (الجهة الوطنية للتحرير)، كما تضم الهيئة مجموعة من التركستان إلى جانب علاقتها بالحزب التركستاني الإسلامي، والأخير رغم قتاله إلى جانب الهيئة ضد الفصائل سابقاً، إلا أنه ليس تابعاً للهيئة، ولا يرجح أن تتطابق مواقفه معها بعد الخلاف بينها وبين الفصائل الجهادية، أو في حال نشوب خلاف حاد بين الهيئة وأنقرة. وقد حرصت هيئة تحرير الشام رغم سياساتها نحو إثبات الاعتدال والتوطين المحلي، في أن تثبت وجود قاعدة شعبية لها لدى المقاتلين الأجانب، بعد ظهور الخلافات بينها وبين تنظيم حراس الدين، واستصدرت بيانات تأييد للهيئة من شرعيين وقيادات جهادية غير سورية^{٤٥}، ولكن نسبة كبيرة منهم تغيرت مواقفها مؤخراً من الهيئة وزعيمها الجولاني.

أما الضربات الأمريكية خلال الفترة السابقة في إدلب، والتي استهدفت الأولى منها اجتماعاً لمنشقين عن تنظيم حراس الدين^{٤٦}، والثانية أحد معسكرات تنظيم أنصار التوحيد^{٤٧}، فقد عززت من فقدان مصداقية الهيئة لدى الوسط الجهادي، وفي الوقت نفسه عززت من قناعة الهيئة بكونها خارج التصنيف الإرهابي ومن الممكن حصولها على قبول دولي لسيطرتها في إدلب.

من الجدير ذكره، أن هيئة تحرير الشام كانت مستفيدة في البداية من علاقتها بالجهاديين الأجانب كورقة قوة في تسويق صورتها المعتدلة الجديدة خارجياً، باعتبارها طرفاً موثقاً من قبلهم وقادراً في الوقت نفسه على ضبطهم حتى الوصول إلى توافق دولي حول مصيرهم، ولكن استمرار تحولات الهيئة البراغمية وتدهور مصداقيتها وعلاقتها بالوسط الجهادي، إضافة إلى انكسار صورتها كقوة عسكرية متفوقة بعد المعركة الأخيرة، وتستمر في الوقت نفسه حرب اغتيالات صامتة تستهدف التيار المنتمي للقاعدة من المقاتلين الأجانب خاصة^{٤٨}، كل هذا يجعل قدرت هيئة تحرير الشام على التحكّم بورقة المقاتلين الأجانب أصبحت أكثر محدودية، إن لم يكن على النقيض، قد أصبحت ورقة المقاتلين الأجانب ضد هيئة تحرير الشام.

التفاهات الروسية التركية

رغم أن اتفاق سوتشي المعلن لم ينص على حلّ أو محاربة هيئة تحرير الشام، لكن بند «محاربة التنظيمات الإرهابية» بقي حجة روسية لاستمرار العمليات العسكرية في حماة وإدلب، وتطورت الصيغة في القمة الثلاثية (١٦ أيلول/سبتمبر) التي تلت التهدئة الأخيرة في إدلب لتنص على «القلق البالغ إزاء زيادة وجود هيئة تحرير الشام في المنطقة» إضافة إلى «مواصلة التعاون لأجل القضاء على تنظيم داعش وجبهة النصرة»^{٤٩}، وهو ما يعني على مستوى التصريحات موافقة تركية على العمليات الروسية ضد الهيئة، وإن كان لا يعكس بالضرورة الموقف الفعلي.

رغم العبء الذي صنعه وجود هيئة تحرير الشام على أنقرة في ملف إدلب، وعدم صدور أي تصريحات تركية توحى بقبول وجود الهيئة أو التنسيق معها أو الاعتراف باعتبارها، إلا أن أنقرة تجنبت الصدام مع هيئة تحرير الشام، وفضلت إنجاز أولوية دخول نقاط المراقبة التركية إلى إدلب بمرافقة هيئة تحرير الشام نفسها.

بالنسبة إلى أنقرة يبدو أن الدخول في صدام عسكري مع هيئة تحرير الشام ليس أولوية ويضع قواتها ومهمتها في إدلب في خطر، إضافة إلى التخوف من أن الدخول في قتال مع تنظيم ذي أغلبية سورية سيكون له تأثير على العلاقة بالمجتمع المحلي في إدلب حيث تتموضع القوات التركية، وهو يضعف إمكانيات المعارضة على الدفاع عن المنطقة، ولا تتفق أنقرة أن القضاء على هيئة تحرير الشام سيعني بالضرورة نهاية العمليات الروسية تجاه إدلب.

بالنسبة إلى أنقرة، يبدو أن الدخول في صدام عسكري مع هيئة تحرير الشام ليس أولويةً ويضع قواتها ومهمتها في إدلب في خطر، إضافة إلى التخوف من أن الدخول في قتال مع تنظيم ذي أغلبية سورية سيكون له تأثير في العلاقة بالمجتمع المحلي في إدلب حيث تتموضع القوات التركية

خاتمة: توقعات التحول

تحاول هيئة تحرير الشام باستمرار إثبات تحولها نحو الاعتدال والمحلية وقطيعتها مع تنظيم القاعدة والفكر السلفي الجهادي، وقابليتها للالتزام بالتفاهات الإقليمية والدولية إن لم تتضمن إنهاء وجودها، مع رهانها على قدرتها على ضبط الحالة الجهادية الأجنبية ضمن مناطقها، في مقابل حصولها على قبول ضمني لاستمرار سلطتها في إدلب، ولكن اهتزاز هذه السلطة داخلياً يضاعف قدرتها على إملاء شروط عالية السقف.

تدرك قيادة هيئة تحرير الشام التراجع العام في تقبل هيمنتها وتقدير حجم قوتها في إدلب، على المستوى الشعبي أو على مستوى الوسط الجهادي أو خارجياً، مع تنامي السخط ضد احتكارها للموارد التجارية من قبل المجتمعات المحلية وفصائل المعارضة والتيار الجهادي على السواء.

ولذلك سارعت الهيئة في ردود فعل لتحسين صورتها العامة، وأجرى الجولاني لقاءات عدة مع مشايخ وتجار وإعلاميين لكسب التأييد^{٥٠}، كما أصدرت بيانات عن خسائرها في معارك حماة وعن محاولات «شق صف المجاهدين» الذي يتبعه خصومها، ووعدت بإجراء إصلاحات وتشكيل لجنة رقابة^{٥١}.

لا شك أن أداء الهيئة العسكري في معارك حماة، والذي كان أضعف مما تروجه الهيئة عن نفسها كقوة عسكرية متفوقة ومسيطرة على إدلب، يؤثر على تقدير أنقرة لقوة الهيئة وتأثيرها الحقيقي، ويضعف من قدرة هيئة تحرير الشام على رفض الضغوط التركية، ليضاف ذلك إلى سلسلة الضغوط التي تتعرض لها الهيئة أمام المظاهرات الشعبية وسخط الفصائل والتيار الجهادي.

لكن احتمالية قيام أنقرة بحرب مباشرة -أو عن طريق فصائل المعارضة المتحالفة معها- ضد هيئة تحرير الشام تبقى محدودة، خاصة مع استمرار خطر تجدد الحملة الروسية، ولكن يمكن لأنقرة استغلال الوضع الأخير لإضعاف سيطرة الهيئة وحكومة الإنقاذ على إدلب، خاصة بعد إدخال فاعلين جدد في المنطقة (الجيش الوطني)، وعودة التأثير للفاعلين الأقدم (الجهة الوطنية للتحرير).

سيكون تنامي الانقسامات داخل هيئة تحرير الشام وصعود حضور تنظيم حراس الدين مفيداً لاستعادة أنقرة وواشنطن ورقة مكافحة الإرهاب في إدلب، ولإمكانية أنقرة القيام بمزيد من الضغوط على هيئة تحرير الشام لو أرادت.

تحاول هيئة تحرير الشام باستمرار إثبات تحولها نحو الاعتدال والمحلية وقطيعتها مع تنظيم القاعدة والفكر السلفي الجهادي، وقابليتها للالتزام بالتفاهات الإقليمية والدولية إن لم تتضمن إنهاء وجودها، مع رهانها على قدرتها على ضبط الحالة الجهادية الأجنبية ضمن مناطقها، في مقابل حصولها على قبول ضمني لاستمرار سلطتها في إدلب؛ ولكن اهتزاز هذه السلطة داخلياً يضاعف قدرتها على إملاء شروط عالية السقف

ولكن هيئة تحرير الشام تدرك أيضاً أوراق قوتها، فمع سيطرتها على إدلب بعد اتفاق سوتشي، تحولت الهيئة من الاعتماد على الأيديولوجيا والقوة العسكرية كفصيل جهادي، إلى شبكة اقتصادية ومؤسسية وأمنية ممتدة في إدلب، مع إدراكها تخلي خصومها -الثوريين والجهاديين معاً- عن الخيار العسكري ضدها، ولم تكسب الهيئة في أي وقت حاضنة شعبية حتى لو لم تقم هذه الحاضنة بالمظاهرات ضدها، لذلك فإن مخاوف الهيئة الأكبر ليست من التهديدات المحلية بقدر التخوف من تحول في السلوك التركي ضدها أو تجدد الحملة الروسية إلى الحد الذي قد يستنزفها أو يهدد وجودها، وهو ما قد يدفع الهيئة للزج بالحد الأقصى من قوتها والعودة للتحالف مع الشبكات الجهادية والخطاب المتشدد في حال فشل سياسة الاعتدال.

لذلك ليس مرجحاً قيام هيئة تحرير الشام بحل نفسها أو التحول نحو جسم جديد في المدى المنظور، ما لم يطرأ تحول حاسم في الموقف التركي، وهو ما لم تظهر أنقرة أدلة عليه في تصريحاتها الأخيرة، فيما عدا المواقف المشتركة ضمن لقاءات ثلاثي الأستانة التي تؤكد محاربة التنظيمات الإرهابية، إلا أن أنقرة قد تلجأ لعمليات أمنية محدودة أو التحريض على انشقاقات في إطار الضغط على قيادة هتس، ومن المستبعد قيامها بعمليات عسكرية في إدلب على غرار درع الفرات أو غصن الزيتون.

إذن، من الواضح أن الهيئة ستواجه المزيد من التراجع والانقسامات الداخلية وتنامي الاحتقان ضدها سواء استمرت الهدنة أو تجددت الحرب في إدلب.

المراجع

- 1- أحمد أبازيد، كيف انهارت حركة أحرار الشام، مركز طوران للدراسات، 2017/8/9
<http://bit.ly/2koXjw7>
- 2- فرانس 24، الجيش التركي يعلن بدء إقامة «مراكز مراقبة» في إدلب السورية، 2017/10/13
<http://bit.ly/2m1NuF6>
- 3- جبهة النصرة: انسحبنا من بعض نقاطنا بريف حلب، الدرر الشامية، 2015/8/10
<http://bit.ly/2kx7RcG>
- 4- فتح الشام تحزّم التعاون مع تركيا وأمريكا في معارك ريف حلب، السورية نت، 2016/9/23
<http://bit.ly/2m40o5s>
- 5- هكذا بررت فتح الشام تصعيدها ضد فصائل بشمال سوريا، عربي 21، 2017/1/25
<http://bit.ly/2mbpQFT>
- 6- بيان مجلس فتوى تحرير الشام حول الأستانة، نور سورية، 2017/5/14
<http://bit.ly/2kRIAvg>
- 7- عقيل حسين، نازلة التدخل التركي بين الولاء للكفار والمضطر للمحظور، المدن، 2017/10/9
<http://bit.ly/2mrGgKF>
- 8- 14 منطقة تسيطر عليها تحرير سوريا جنوبي إدلب، عنب بلدي، 2018/2/2
<http://bit.ly/2kXmaYh>
- 9- ستة بنود تنهي اتفاق إدلب، عنب بلدي، 2018/4/25
<http://bit.ly/2kNACCg>
- 10- 11 فصيلاً عسكرياً يتوحدون تحت اسم الجبهة الوطنية للتحرير، تلفزيون سوريا، 2018/5/28
<http://bit.ly/2m1bd8m>
- 11- اندماج أكبر الفصائل العسكرية في الجبهة الوطنية للتحرير، تلفزيون سوريا، 2018/8/1
<http://bit.ly/2kuSW2F>
- 12- حسب بنود الاتفاق التي أوردتها وكالة الأناضول التركية، انظر: قمة سوتشي والفيتو التركي يجنبان إدلب كارثة إنسانية، وكالة الأناضول، 2018/9/19
<http://bit.ly/2kuj7Xp>
- 13- هيئة تحرير الشام توضح موقفها من اتفاق سوتشي حول إدلب، تلفزيون سوريا، 2018/11/14
<http://bit.ly/2kCJRVl>
- 14- هيئة تحرير الشام تشكل 3 جيوش في إطار ترتيب صفوفها بالشمال السوري، المرصد السوري لحقوق الإنسان، 2018/9/30
<http://bit.ly/2mTZGbz>
- 15- الزنكي ينسحب من كامل مناطق سيطرته غرب حلب لصالح تحرير الشام، تلفزيون سوريا، 2019/1/5
<http://bit.ly/2mv6Suh>
- 16- فراس فحام، أسباب انهيار الجبهة الوطنية للتحرير والسيناريوهات المتوقعة لشمال سوريا، 2019/1/11
<http://bit.ly/2m2AkYi>
- 17- هيئة تحرير الشام تسيطر على منطقة إدلب بعد اتفاق وقف إطلاق النار، فرانس 24، 2019/1/10
<http://bit.ly/2m29QpW>
- 18- عدنان أحمد، معارك إدلب حماة هجوم معاكس يوجع النظام السوري، العربي الجديد، 2019/6/8
<http://bit.ly/2m9Owi4>
- 19- جلال بكور، أستانة 13 توافق على وقف إطلاق النار في إدلب، العربي الجديد، 2019/8/2
<http://bit.ly/2k2Ttr>
- 20- النظام يسيطر على مدينة خان شيخون بمحافظة إدلب، فرانس 24، 2019/8/21
<http://bit.ly/2kzSzE8>
- 21- تحرير الشام تواصل عمليات الاعتقال في جبل الزاوية بإدلب، شبكة شام، 2017/6/30
<http://bit.ly/2m9PA5w>
- 22- تشير مصادر إعلامية مقربة من الفصائل إلى أن هيئة تحرير الشام انسحبت من مدينة خان شيخون وتل النمر الملاصق لها قبيل ساعات من انطلاق الرتل التركي نحو جنوب إدلب، ما أعاق وصول الرتل إلى خان شيخون قبيل سقوطها، انظر: تفاصيل الساعات الأخيرة قبيل سقوط خان شيخون في ريف إدلب، نداء سوريا، 2019/9/11
<http://bit.ly/2mxkUf3>
- 23- تحرير الشام تشكل لجنة رقابة عليا، وكالة قاسيون للأخبار، 2019/9/13
<http://bit.ly/2kuPRQ8>

- 24- عدنان أحمد، حكومة الإنقاذ في إدلب ذراع هيئة تحرير الشام لارتكاب الانتهاكات، العربي الجديد، 2018/11/24
<http://bit.ly/2mlkWpW>
- 25- حسام جبالوي، تجميد الدعم الأوروبي يهدد استمرار مراكز صحية في إدلب، تلفزيون سوريا، 2019/7/30
<http://bit.ly/2mmnZhy>
- 26- نداء سوريا تحاور المشرف العام على حملة ارم معهم بسهم، نداء سوريا، 2019/5/23
<http://bit.ly/2m62MbK>
- 27- عقيل حسين، من هو أبو العبد أشداء آخر مغادري مركب تحرير الشام، تلفزيون سوريا، 2019/9/11
<http://bit.ly/2mncdUb>
- 28- تسريب صوتي انتشر أثناء الاقتتال بين هيئة تحرير الشام وحركة أحرار الشام في تموز 2017
<https://twitter.com/abazeid89/status/889097701975093248>
- 29- قناة محمد ناجي (أبو اليقظان المصري) على تطبيق تيليفرام
<https://t.me/mnagui/4830>
- 30- الرئيس السابق للمحكمة العسكرية في تحرير الشام يسرب تفاصيل اجتماع، نداء سوريا، 2019/9/28
<http://bit.ly/2orcd6O>
- 31- قناة بتول جنديّة (علا الشريف) على تطبيق تيليفرام
<https://t.me/drolatele/546>
- 32- قناة طلحة المسير (أبو شعيب المصري) على تطبيق تيليفرام
<https://t.me/abosheab/108>
- 33- راجع الهوامش: 3،4،5،6،7
- 34- تراجع الشعبية والفساد الإداري والمالي.. قيادي بارز في هيئة تحرير الشام يصارح الشعب، نداء سوريا، 2019/9/9
<http://bit.ly/2meLEki>
- 35- مصادر خاصة للباحث
- 36- أحمد أبازيد، جبهة النصر والمرحلة التركية.. تحولات دائمة ومصائر قلقة، العربي الجديد، 2017/10/26
<http://bit.ly/2mzLc0d>
- 37- الظواهري يهاجم الهيئة والجولاني ويلمح لهذا الأمر، عربي 21، 2017/11/28
<http://bit.ly/2mL84tB>
وانظر:
الظواهري يفتح النار على النصر، عربي 21، 6/2/2019
<http://bit.ly/2l4Gall>
- 38- حسن أبو هنية، حراس الدين وتكيفات القاعدة في سوريا، 2018/3/11
<http://bit.ly/2m6rkkU>
- 39- تحرير الشام تطلق سراح العريدي، وكالة قاسيون للأخبار، 2017/1/12
<http://bit.ly/2l3RYKW>
- 40- حسن أبو هنية، صراعات الجهادية في إدلب، عربي 21، 2019/2/10
<http://bit.ly/2kBovrK>
- 41- اتفاق بين تحرير الشام وحراس الدين بإدلب.. دائم أم مؤقت؟، عربي 21، 2019/2/11
<http://bit.ly/2l442fc>
- 42- أبرز قادة الهيئة الأردنيين هو أبو حسين الأردني، القائد العسكري لقوات النخبة في هيئة تحرير الشام، اسمه الحقيقي: عبد الرحمن حسين الخطيب، وهو شاب أردني من أصل فلسطيني كان طالب طب في الجامعة الأردنية في عمان قبل سفره إلى سوريا عام 2013 (مصادر خاصة للباحث)
أما أبرز قادة تنظيم حراس الدين الأردنيين فهم: أبو القسام الأردني وسامي العريدي، وإياد الطوباسي «أبو جليبيب» قبل تركه للتنظيم ومغادرته إلى درعا حيث لقي مصرعه هناك أواخر 2018
- 43- جبهة النصر والمرحلة التركية.. تحولات دائمة ومصائر قلقة، مصدر سابق
- 44- عبد الله المحيسني يعلن استقالته من هيئة تحرير الشام، سمارت نيوز، 2017/9/11
<http://bit.ly/2lgNNvr>
- 45- مقاتلون أجنب يؤيدون تحرير الشام في إدلب، المدن، 2019/2/6
<http://bit.ly/2mki8JJ>
- 46- القوات الأمريكية تقصف اجتماعاً لقادة جهاديين في شمال إدلب، فرانس 24، 2019/7/1
<http://bit.ly/2kjdCUJ>

- 47- البنتاغون: قواتنا استهدفت منشأة تابعة للقاعدة في سوريا، دويتش فيليه، 2019/8/31
<http://bit.ly/2mJMj3D>
- 48- ما بين 26 نيسان 2018 – 1 يناير 2019 تم رصد 420 عملية اغتيال، من بينها 45 عملية اغتيال لمقاتلين أجنب، انظر:
اغتيالات متجددة ضمن محافظة إدلب، المرصد السوري لحقوق الإنسان، 2019/1/7
<http://bit.ly/2mGTaEx>
وانظر:
الاغتيالات في مناطق المعارضة خلال الفترة الممتدة من شباط حتى تموز 2019، مركز عمران للدراسات، 17/9/2019
<http://bit.ly/2lhVbH5>
- 49- البيان الختامي لقمة أنقرة يشدد على وحدة سوريا والتمسك بمبادئ الامم المتحدة، وكالة الأناضول، 2019/09/16
<http://bit.ly/2lelqgo>
- 50- الجولاني يعقد اتفاقاً مع مشايخ الأوقاف في إدلب، نداء سوريا، 2019/9/17
<http://bit.ly/2kAzSQL>
- 51- تحرير الشام تشكل لجنة رقابة عليا، مصدر سابق

عن المؤلف

أحمد أبازيد، كاتب وناشط سوري، له العديد من مقالات والأوراق المنشورة عن الثورة السورية والمجموعات المقاتلة بالإضافة الى مواضيع أخرى.

عن الشرق

منتدى الشرق هو شبكة دولية مستقلة تتمثل مهمتها في تطوير استراتيجيات طويلة الأمد لضمان التطور السياسي، والعدالة الاجتماعية، والازدهار الاقتصادي لشعوب منطقة الشرق الأوسط. وسيقوم بتنفيذ ذلك من خلال الأبحاث المتفانية في العمل العام، وبتعزيز مثل المشاركة الديمقراطية، والحوار بين أصحاب المصالح المتعددة والعدالة الاجتماعية

Address: Istanbul Vizyon Park A1 Plaza Floor:6
No:68 Postal Code: 34197
Bahçelievler/ Istanbul / Turkey
Telephone: +902126031815
Fax: +902126031665
Email: info@sharqforum.org

sharqforum.org

    / SharqForum

 / Sharq-Forum

**الشرق
منتدى**
ALSHARQ FORUM